_ محاضرة رقم9: المنهج الديالكتيكي عند هيغل (1770_ 1831):

تمهيد:

يحتل هيغل مكانة هامة في تاريخ الفلسفة، هو رائد من رواد هذه الفلسفة وأحد أكبر فلاسفتها في العصر المعاصر، وهو الذي كرس حياته لبناء مشروع فلسفي تجريد ضخم أراد من خلاله أن يفسر التاريخ البشري أو التجربة التاريخية الوجودية على حساب العقل أي أنه أراد عقلنة تاريخ الإنسانية.

1_ هيغل وكانط:

إن البداية الأولى للفيلسوف الألماني هيغل في إعداد مشروعه الفكري هو العودة إلى الكانطية النقدية، وهو فيلسوف صنف ضمن الفلاسفة ما بعد الكانطيين من أمثال فخته، شلنج...الخ من الفلاسفة الألمان

كانط كان في فلسفته يؤكد أن المعرفة تتدخل فيها ثلاث طرق وهي الحساسية التي بها نعرف الأشياء المحسوسة في إطار الزمان والمكان، والفاهمة التي تعمل على التركيب والتأليف بين عناصر الحدس الحسي، العقل ملكة تركيب عليا يبني أفكار متعالية ترنسندنتالية، في المقابل نجد هيغل يحتفظ بالفاهمة والعقل وفيما بعد يعمل على تغير دور كل منهما، عند هيغل الفاهمة أو الفهم يساعدنا على التأليف بين عناصر الأشياء، لكن يبقى دائما شكل أدنى من أشكال المعرفة، كذلك بالنسبة للعقل نستطيع من خلاله الوصول إلى المعرفة العليا أو معرفة عالم المطلق. ليس كما يقول كانط هناك للعقل حدود لا يتجاوزها مثل الميتافيزيقا والغيبيات العقل هنا ربما يقع في الكثير من التناقضات ولا يصل إلى نتائج مثل الله مثلا هو موضوع إيمان وليس موضوع برهنة (سرو، 1993، صفحة 12).

يقول إمام عبد الفتاح فيما يقوله هيغل بخصوص المعرفة:" إن امتحان المعرفة لا يمكن أن يتم بغر أن نعرف وأن نريد المعرفة قبل أن نعرف هذا خلف أشبه بنصيحة حكيمة أطلقها بعض الأسكوليين تعلم السباحة قبل أن تغامر بالنزول في الماء (الموسوعة الفقرة 10).

يبين هيغل أن حاسة الفهم أو الفاهمة لا تبين لنا الأوجه المتفرقة في الأشياء، أيضا العقل بدونه لا نستطيع معرفة الشموليات في الأشياء بل فقط نتعرف على الجزئيات فيها.

2_ معنى الديالكتيك عند هيغل:

إن ما تخفيه الفاهمة عند كانط وتجعله متعارضا، يحاول تركيبه وتأليفه العقل ويقدمه في شكله العيني الملموس كما هو، العقل يزيل المتضادات، التناقضات، في تكريب أعلى يقوم به وكل تلك الاختلافات

يرجعها إلى حقيقتها الأصلية أو إن شئنا إلى هويتها، كما أن هذه الهوية لها مضمون يكشف عن التنوعات والاختلافات الجوانية في الشيء وفي الفكر أيضا هذا هو معنى الديالكتيك.

إن موضوع الفكر والمعرفة يتحدد عند هيغل عن طريق الديالكتيك أي يقبله وكأنه فكر متناقض ثم يظهره من حيث أنه له هوية عينية لأوجه متعارضة يوضح لنا هيغل هذا الديالكتيك كالآتي:

الفكرة (القضية)

↓

نفيها الخاص بها (نقيض القضية)

↓

(هنا يتولد ما يعرف بالتأليف أو التركيب) (سرو ر.، 1993، صفحة 14)

إن الفكر عند هيغل عموما هو فكر منطقي بداية يمر باللحظة المجردة ثم اللحظة الديالكتيكية، ثم اللحظة النظرية هنا يتشكل عقل موجب ومن ثم يستطيع الوصول إلى التأليف والتركيب.

لقد كان كانط قبل هيغل يميز بين علم الفينومين والنومين، الفينومين هو عالم الظواهر والمحسوسات، أما عالم النومين هو عالم الماهيات أو الماهيات التي تحدد الشيء في حقيقته، إن العقل بحسب كانط عندما يكون ديالكتيكي، فإنه كلما حاول معرفة عالم النومين أو الدخول في الأشياء التي هي فيه فإنه حتما سوف يقع في المتناقضات، والمغالطات الكبيرة، مثال ذلك العقل عندما يبحث مثلا في الميتافيزيقا إنه يتعامل مع قضايا مجردة متعالية ليس لها أي تحقق على أرض الواقع، مثل مسألة الله، خلق الكون، الروح وغيرها من المسائل الأخرى، دائما العقل هنا كلما حاول الخروج بنتائج حسب كانط يجد عراقيل وصعوبات تعترضه ومن ثم عليه ان يفكر ويبحث في عالم الظواهر التي هي موجودة في الزمان والمكان فقط، في مقابل ذلك نجد هيغل يقدم تفسيرا يخالف التفسير الكانطي خاصة فيما يتعلق بعالم النومين، لأن العقل الهيغلي ليس هو العقل الذي تكلم عنه كانط من أنه مجرد وسيلة وأداة مساعدة في عملية المعرفة وفقط، إن العقل حسب هيغل هو الذي يحدد لنا حقائق الأشياء المتعالية، أي شيء يحدث في الوجود وهو موجود بالفعل لا يمكن أن يتجلى ويتضح خارج إطار العقل، أو الفكر الذي يقدمه، فإذن كل شيء يتحرك حسب هيغل داخل الفكر أو المنطق كما يطلق عليه فيما بعد، أما التناقض فهو موجود داخل الأشياء في حد ذاتها كل شيء فيه اختلاف وتناقض، اختلاف الشيء وتناقضه يكشف عن طريق العقل بل هو الذي يبين ماهية هذه الأشياء، هذا إن دل على شيء إنما يدل على ان كل ما هو واقعي محسوس فهو عقلي

يتحرك ويتجلى أما الروح، لا وجود للوجود دون الفكر، الفكر هو الوجود، ومن هنا تكون الفلسفة أو التفكير هو ليس تفكير حول الظواهر المحسوسة أو له حدود كما يثبت ذلك كانط بل العكس هو المنطق والمنطق هو علم الفكرة الشامة في ذاتها ولذاتها، المنطق قديما كان عند أرسطو هو آلة تعصم الذهن من الوقوع في الزلل والتناقض، عند هيغل الأمر يختلف المنطق هو نظام للعقل وبمثابة نسق له وهو منظومته الأساسية (زيناتي، الفلسفة في مسارها، 2002، صفحة 218).

3_ المنطق والعقل:

إن العقل حسب هيغل يكون له تجلى وحضور في الوجود عن طريق المنطق، والفلسفة عموما هي المنطق، لكن إذا كان هو منظومة العقل فإن هذا المنطق الذي يتبعه العقل هو الديالكتيك

وشكل الديالكتيك هو أن العقل مساره في فهم ومعرفة الوجود ينطلق من بناء أطروحة، نفيها، ثم يعيد التأليف والتركيب بعد الجمع بين التناقض والاختلاف الأول، إن الفلسفة بهذا المعنى هي المنطق، والمنطق هو الديالكتيك، والديالكتيك هو الحقيقة هذا يدعى الديالكتيك الهيغلي، في المقابل نجد الديالكتيك الكانطي نجده يبين لنا الحقيقة في ظاهرها فقط، وليست في باطنها، انطلاقا مما سبق يكون ما يرفضه كانط كحل للمعرفة يجعله هيغل كأساس للمعرفة والوصول إلى عالم الحقيقة، هذا ما يعرف بالانقلاب الهيغلي على كانط ومعنى كل الحدود التي وضعها كانط للفكر والعقل عمل هيغل على فتحها، إن الحقيقة بهذا المعنى تستقر وتتمركز خلف العقل، الروح والطبيعة، ومن خلال هذا يتجلى الإنسان، التاريخ، التمظهر، التجلي، الوضوح، هذا الثالوث الذي ذكره هيغل عقل، روح ، طبيعة هو علم الفكرة idée كما يصطلح عليه أو علم الماهية وهذه الفكرة المطلقة تتجلى في أشكال متميزة ومحدودة ثم تعود إلى ذاتها (سينجر، صفحة 103).

عندما يوضح هيغل هذا التقسيم في موسوعته الفلسفي الضخمة يبين ما يلي:

_ المنطق هو علم الفكرة (الماهية)

_ فلسفة الطبيعة هي التي تبين ان الفكرة هنا تتحقق في شكل وجود، آخر، غير (نفي الفكرة لنفسها)

_ فلسفة الروح: تبين ان الفكر ولو أنها تخرج لكنها تعود إلى ذاتها بعد أن عرفت نقيضها أي تعود إلى وعي الذات لذاتها وهذه العودة تعرف بالوعي الكلي عند هيغل وعي الحقيقة لحقيقتها هناك من يقول الإله (زيناتي، الفلسفة في مسارها، 2002، صفحة 219).

إن الحقيقة عند هيغل يصنعها الإنسان ويخلقها، عن طريق هذا المسار الديالكتيكي الذي يقوم به

إثبات، نفي(سلب)، التركيب والتأليف الذي يتم عن طريق الذات مرة أخرى.

إن العقل الذي يتحدث عنه هيغل هو الروح في حد ذاته، والروح في نهاية المطاف هي عقل ذكي (زيناتي، الفلسفة في مسارها، 2002، صفحة 221).

إن الذات حينما تتأمل في موضوعاتها التي تحيط بها، فإنها قبل كل شيء تتأمل ذاتها وتحاول إلغاء واستبعاد نفسها كذات، امام الموضوع بعبارة أخرى الذات حينما تفكر في فكرة معينة تصبح محايثة لتلك الفكرة أو الموضوع الذي هو أمامها، وتبين أنها تنسحب من تلك الفكرة، هذا نفي لذاتها لكن في النهاية تعيد التركيب لتبين الحقيقة الكلية والمطلقة، كذلك العقل يسلم بالتناقض والاختلاف يحاول تجاوز ذلك لكنه في الوقت ذاته يدرك الهوية الكامنة وراء ذلك التناقض والاختلاف، يتضح هنا حسب هيغل أنه هناك وعي مباشر، وعي ذاتي، العقل، والعقل عند هيغل هو من يستطيع إزالة التناقض والاختلاف بين الوعي المباشر، والوعي الذاتي ومثال ذلك الموضوع يكون مباشر أمام الذات، الوعي المباشر يرى بأنه هناك محايثة بين الموضوع والذات وأن الذات هي الموضوع، لكن العقل يكشف عن أنه هناك تباين واختلاف فيما بينهما، يكون العقل بهذا المعنى هو شكل من أشكال المعرفة التي تعبر عن نشاط الروح المتعالي بل ويمثل حركتها ووعيها (إمام، 2007، صفحة 111) وعن طريق العقل الروح تدرك ذاتها وتعيها كما يقول هيغل" لقد أدرك الوعي بالذات الآن مفهوم ذاته" (هيغل، 2006)

إن الصيرورة التي هي متجلية في الوجود لا تنكشف وتتضح لنا بشكل علني وصريح، إنما العقل هو الذي يستطيع معرفه كنهها، ويكشف عنها من خلال عدة صور منها ما يلي:

_ إحساس

_ إدراك حسي

_ الأفكار

صورة الروح هي موجودة في هذه الصور التي يقدمها العقل في العالم الحسي ومن هنا ينتج أن العقل حسب هيغل يمتلك ماهية الأشياء وعندما يقوم بالربط والتأليف والكشف عن التناقض والإختلاف في كل شيء فإنه في مهمة الجدل (إمام، 2007، صفحة 112).

بالإضافة إلى ما سبق نجد أن الوعي المباشر يطلعنا على أن الموضوع يبدو مستقل عن الذات، أما الوعي الذاتي يبين لنا أن الموضوع يتحول إلى ضده ويصبح هو الذات، أما المرحلة الأخيرة فهي مرحلة العقل الذي يبين أن الموضوع متحد مع الذات ومختلف عنها في وقت واحد، من هنا لكي نكشف عن

حقيقة موضوع ما أو أي شيء من الأشياء حسب هيغل لا يكفي النظر إليها وإنما علينا أن تستجمع جميع قدراتنا المجردة والعقلانية التي تحوله إلى ما هو كلي، عند ذلك يتضح هذا الشيء في حقيقته الأصلية وهذا هو الجدل الذي هو أصل كل حركة وكل ما يحدث في الحياة، حركة هذا الجدل كلها تعود إلى مصدر أصلي وهو الروح هذه الروح هي المسؤولة عما يحدث في العالم وما يحدث هناك هي مجموعة من التجليات التي تكشف بها عن نفسها وذاتها سواء في العالم الطبيعي أو العالم الروحي على السواء، هذا الجدل إذن يكون في الفكر، في القانون، الأخلاق، السياسة، المؤسسات...الخ مثال ذلك كيف يكون الجدل في القانون يبين هيغل أن الحاكم الذي يمارس العدل المطلق عندما يل إلى مرحلة معينة ربما ذلك ظلم مطلق، تطبيق حكم معين ربما يتحول إلى فوضى سياسية، أخلاقيا الإنسان المفرط في الخداع و الحيل قد يخدع نفسه في يوم من الأيام إذن كل شيء فيه سلب (إمام، 2007، صفحة 114).

إن هيغل بهذا المنهج أراد أن يؤكد أن ما يحدث في الكون من تغير وتطور وكل ما هو في التجربة الإنسانية يخضع لنسق كلي واحد وذلك لا يتضح لنا إلا عن طريق هذا الديالكتيك التي يتم وفق قواعده الثلاث القضية التي تصادف نفيها، ومن نفي النفي يكون هناك التركيب الذي يؤدي إلى الحقيقة والحقيقة ليست متغيرة وإنما فقط الشيء أو الموضوع عندما يتحقق في هذا الكل تتضح حقيقته كلما وصلنا إلى الكل وصلنا إلى الحقيقة، والحقيقة هنا هي كلية شمولية وهذه الحقيقة تتضح بعد المسيرة التي يقوم بها الوعي منذ البداية إلى النهاية وهذه هي مسيرة الروح الواعية كما يعرفها هيغل (زيناتي، الفلسفة في مسارها، 2002، صفحة 226).

إن النسق الهيغلي بهذا المعنى المختصر ربما يرفضه المنشغل بالفكر الفلسفي ويعتبره مجرد هواية فكرية يريد من خلالها هيغل أن يجعل كلي شيء ضمن هذا النسق الذي هو مجموعة من المفاهيم والقوانين المجردة والبالغة قمة في التجريد، هناك من يعتقد كذلك أن هذا الثالوث الذي بينه هيغل من خلال منهجه الجدلة يعتبر نوع من التثليث المسيحي حاول هيغل أن يسقطه على الحياة والطبيعة، والتاريخ، أيضا هناك من يقول أن مسيرة الروح التي تقوم بها أي من داخل ذاتها ثم تخرج إلى الطبيعة والتاريخ تعيش هناك نوع من الشقاء ثم تعود مرة أخرى لكي تتصالح مع نفسها هذا نفسه ما نجده عن المسيحية وعلاقتها بشخص المسيح عيسى كمصالحة بين السماء والأرض، بين الإنسان والإله لكن رغم كل ذلك يبقى النسق الهيغلي وخاصة المنهج الجدلي عنده له أهمية كبيرة في تاريخ الفلسفة إلى يومنا هذا (زيناتي، الفلسفة في مسارها، 2002، صفحة 228)

خاتمة:

ينتج من خلال ما سبق ما يلي:

_ المنهج الجدلي به يمكن الكشف عنه كلما استوعبنا وفهمنا طبيعة العقل، هذا العقل الذي كان عند كانط مقيدا وله حدود مع هيغل ينغي تثمين الدور الذي يؤديه هذا عندما نكشف عن طبيعته الأصلية

_ الفكر عند هيغل هو تصور والتصور بالنسبة له قد يكون حسي أو عقلي فيه إيجاب، سلب، تركيب.

_ العقل عند هيغل يمر بثلاث مراحل التصور والفهم، ثم يتحول إلى عقل سلبي، ثم إلى عقل إيجاب ويصبح داخل ما هو كلي مطلق.

_ الفكر عند هيغل هو أساس الوجود وكل موجود من الموجودات فيها تناقض، إيجاب، سلب، تركيب.

_ كلما نزعنا الجانب الحسي من الفكر، أو كلما حررنا الفكر في المحسوسات وبينا طبيعته كلما مارسنا الجدل في كل صرامته وصوره المنطقية.

المراجع المعتمدة:

_ رنيه سرو، **هيغل والهيغلية**، ترجمة: أدونيس العكره، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1993.

_ جورج زيناتي، **الفلسفة في مسارها**، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط1، 2002.

_ إمام عبد الفتاح إمام، **المنهج الجدلي عند هيغل دراسة لمنطق هيغل**، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط3، 2007.

_ بيتر سينجر، **هيغل**، ترجمة: محمد إبراهيم السيد، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، المملكة المتحدة، 2014.

_ فريدريك هيغل، **فينومينولوجيا الروح**، ترجمة: ناجي العونلي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2006.